# الفصل الثانى

## العولمة والهوية الثقافية

### (١)

### العميان والفيل

نحن إزاء العولمة كالعميان إزاء الفيل، فى تلك القصة الشهيرة التى يلمس فيها كل من العميان جانبا من الفيل، فيصفه على أنه الفيل بأكمله، دون أن يعرف أن للفيل جوانب أخرى كثيرة. كل منا فى وصفه للعولمة على صواب تماما، لولا أن معظمنا لا يريد أن يعترف بأن بقية العميان على صواب أيضا.

وكلنا مستعد للإقرار بأن للعولمة تأثيرا على الهوية الثقافية، ولكن من الطبيعى أن كلا منا لا يرى إلا هذا الأثر الذى يصدر عن ذلك الجانب من العولمة الذى يلمسه بيده، ومن ثم كان من الطبيعى أن يختلف المحللون لظاهرة العولمة حول تحديد ذلك الأثر على الهوية الثقافية: ما هو بالضبط؟ هل هو مهم أم غير مهم؟ مرغوب فيه أم غير مرغوب فيه؟ من السَهل تجنبه أم من الصعب؟.

هناك مثلا من لا يرى فى العولمة إلا اتجاها متزايدا نحو تقسيم العمل وانتشار التكنولوجيا الحديثة من مراكزها فى العالم المتقدم اقتصاديا، إلى أقصى أطراف الأرض، ومن ثم زيادة الإنتاج أضعافا مضاعفة، وهو فى سبيل ذلك مستعد لأن يغفر للعولمة أى تأثير سلبى يمكن أن ينتج عنها

على الهوية الثقافية، بل هو مستعد للقول بأن هذا الأثر السلبى على الهوية تافه أو بسيط، بل قد يذهب إلى حد القول بأن الهوية الثقافية سوف تفيد من العولمة بدلا من أن تضار.

هناك أيضا المفتونون بالحضارة الغربية بوجه عام، ليس فقط بكفاءتها منقطعة النظير، فى الإنتاج المادى، بل وفى نقل المعلومات وتخزينها وتوفيرها لمن يريد الانتفاع بها، وبما حققه الغرب فى مضمار التنظيم السياسى والاجتماعى والإنتاج الثقافى، أولئك المفتونون بالديمقراطية الغربية، وبالعلاقات الاجتماعية الغربية، وبغزارة ونوع الإنتاج الثقافى فى الغرب، ويتمنون لشعوبهم سرعة اللحاق بكل هذه الإنجازات ويجدون فى العولمة السبيل إلى ذلك. ومن هؤلاء من لا تثير لديهم مسألة الهوية الثقافية إلا السخرية والاستهزاء: إذ ما هى تلك الهوية التى تبدو قلقا عليها كل هذا القلق؟ هل تعنى هذه الهوية شيئا آخر غير التخلف والجهل والفقر والعقم، والقعود التام عن الحركة، والاستسلام للخزعبلات والتقاليد التى لم يعد لها دور فى العالم الحديث؟.

هناك أيضا الكارهون للعولمة، ولكن هناك مائة سبب محتمل لهذه الكراهية. هناك من يكرهونها لأنها تتضمن مزيدا من الاستغلال الاقتصادى: ألا ترى مثلا ما تفعله الاستثمارات الأجنبية الخاصة عندما تترك العالم فى البلاد الرأسمالية نهبا للبطالة، وتذهب لاستغلال العمل الرخيص فى البلاد الأقل نموا؟ أو لا ترى أيضا شركات الأدوية العملاقة تضغط من أجل أن تفتح لها كل بلاد العالم أبوابها لتحقق مزيدا من الربح على حساب مستهلكى ومنتجى هذه الأدوية داخل هذه البلاد الأقل نموا؟

نعم، الهوية الثقافة لابد أن تعانى من جراء ذلك، ولكن المعاناة هنا ليست إلا نتيجة الاستغلال الرأسمالى، إذ تحمل كل هذه الاستثمارات الأجنبية وهذه السلع المستوردة فى طياتها ثقافة مغايرة تسحق ثقافات الأمم المستوردة لها، لا لغرض إلا لتحقيق مزيد من الأرباح. وحماية الهوية الثقافية واجبة، فى نظر هؤلاء، كوسيلة للتصدى لهذا الاستغلال، إذ إن إثارة الحمية الوطنية والحماس للثقافة الوطنية قد يعطلان هذا الاتجاه لدى الرأسمالية العالمية للانتشار.

وهناك من يكره العولمة لا لسبب اقتصادى، بل لسبب دينى. فالعولمة آتية من مراكز دينها غير ديننا، بل هى قد تنكرت للأديان كلها، وآمنت بالعلمانية التى لا تختلف كثيرا، فى نظر هؤلاء، عن الكفر، ومن ثم ففتح الأبواب أمام العولمة هو فتح الأبواب أمام الكفر، والغزو هنا فى الأساس ليس غزوا اقتصاديا، بل غزوا من جانب فلسفة للحياة معادية للدين، والهوية الثقافية المهددة هنا هى فى الأساس دين الأمة وعقيدتها، وحماية الهوية معناها فى الأساس الدفاع عن الدين.

هناك من ناحية أخرى، من يرى أن العولمة ليست غزوا اقتصاديا أو غزوا علمانيا، بل غزوا قوميا، بمعنى تهديد هوية أمة لهوية أمة أخرى. صحيح أن هذا الغزو يتضمن استغلالا اقتصاديا، وصحيح أنه يهدد دين الأمة التى يجرى غزوها، ولكن هذا وذاك ليسا إلا جزئين من ظاهرة أوسع، وهما مرفوضان لسبب أكبر وأشمل. فالاستغلال الاقتصادى ليس مطلوبا فقط لمنع الاستغلال، بل مطلوب لتحقيق نهضة شاملة للأمة، وتحقيقا لاستقلال إرادتها. وتهديد الدين والعقيدة جزء من تهديد نمط

الحياة بأسره، ولقيم الأمة بصفة عامة، التى يعتبر الدين جزءا منها ولكنه لا يستوعبها كلها، وذلك لصالح نمط الحياة فى تلك المراكز التى تولد هذا الاتجاه نحو العولمة . فى نظر هؤلاء، تعتبر حماية الهوية الثقافية هى الهدف الأصلى، وليس مجرد وسيلة للتصدى للاستغلال الاقتصادى، كما أنه هدف أشمل من هدف حماية الدين من العلمانية.

إن كلا من هذه المواقف المؤيدة والمضادة للعولمة يحمل فى رأيى جزءا من الحقيقة، وهو جزء لا يمكن الاستهانة به. نعم، العولمة تؤدى إلى تعظيم الإنتاج، على الأقل من وجهة نظر العالم ككل، والعولمة تمثل تقدما لا يمكن إنكاره فى بعض القدرات المهمة للإنسان فى المعرفة وفى السيطرة على الطبيعة، وفى بعض أنواع التنظيم السياسى والاجتماعى، وفى بعض أنواع الإنتاج العلمى والفنى.

والعولمة تتضمن، بلاشك، اتجاها نحو مزيد من الاستغلال الاقتصادى من جانب الشركات العملاقة للمستضعفين فى الأرض، وتتضمن قهرا لمعتقدات ومقدسات بعض الأمم، لصالح نظرة تتخذ على الأقل موقف اللامبالاة من العقائد الدينية. والعولمة، بلاشك، تهدد أنماط الحياة الخاصة بالأمم التى كانت أكثر انعزالا عن العالم، لصالح نمط معين للحياة هو السائد فى الدول الأكثر سطوة.

ولكن هذه المواقف المرحبة بالعولمة والمضادة لها قد لا تستوعب كل المواقف الممكنة من العولمة، ومن ثم قد لا تستوعب كل المواقف الممكنة من قضية حماية الهوية الثقافية. إن هناك موقفا يزيد ميلى إليه كلما أمعنت التفكير فى ظاهرة العولمة، والهوية الثقافية، وقد يمثل جانبا يستحق

الاهتمام، وقد لا يقل أهمية عن مختلف الجوانب التى ذكرتها، سواء من حيث مساعدتنا على فهم حقيقة العولمة، أو على اتخاذ الموقف الصحيح منها. كما أنه يؤدى إلى نظرة إلى الخطر الذى يهدد الهوية الثقافية، قد تختلف اختلافا مهما عن النظرات الأخرى. هذا الموقف من ظاهرة العولمة يدور حول النظر إليها كما لو كانت مرادفة لانتشار ما يسمى أحيانا بـ «المجتمع التكنولوجى الحديث». إن هذه الظاهرة ظاهرة انتشار «المجتمع التكنولوجى الحديث»، ليست هى بالضبط انتشارا للاستغلال الرأسمالى، وليست مجرد انتصار للعلمانية على العقائد الدينية، وليست بالضبط قهرا من جانب هوية أمة لهويات أمم أخرى، بل هى ظاهرة قد تكون أخطر بكثير من كل هذا . ومن ثم فإن الموقف الذى تستوجبه قد يكون أصعب بكثير مما نظن. وسوف أحاول فى هذا الفصل شرح هذه النظرة إلى العولمة التى قد لا تزيد فى الحقيقة عن محاولة إضافية من شخص آخر ضعيف البصر، إلى محاولات أخرى من جانب أشخاص آخرين ضعاف البصر أيضا، للإحاطة بحقيقة الفيل.

## (٢)

# العولمة قديمة ، وكذلك الغزو الثقافى

سبق أن ذكرت أن الاتجاه نحو العولمة قديم جدا، ولابد أن الإنسان قد شعر بأن العالم قد أصبح «قرية واحدة كبيرة»، أو بشيء شبيه بهذا عدة مرات من قبل . لابد أن الإنسان الأوروبى قد شعر بشيء من هذا عندما وطئت قدماه القارة الأمريكية لأول مرة، منذ خمسة قرون، وعندما أبحرت أول سفينة بخارية منذ أقل قليلا من قرنين، وعندما نظر رجل الفضاء لأول مرة إلى كوكب الأرض منذ نحو أربعين عاما. كل ذلك قبل أن يخرج إلينا الإنسان المعاصر مزهوا أو مندهشا من بزوغ ظاهرة الشركات متعدية الجنسيات التى يفوق حجم مبيعات كل منها، حجم الناتج القومى لعدة دول مجتمعة.

لابد أن ماركس وانجلز كانا يتكلمان عن نفس هذه الظاهرة، ظاهرة العولمة، منذ ١٥٠ عاما، عندما كتبا فى البيان الشيوعى أن السلع التى تخرج من مصانع الرأسمالية ستأخذ فى الانتشار شرقا وغربا ولن يفلح فى صدها أى سور ولو كان بمناعة سور الصين العظيم.

إذن فكثرة الكلام عن العولمة فى العشر سنوات الأخيرة لابد أن يكون سببها ليس نشأة الظاهرة بل نموها بمعدل متسارع (فضلا عن وجود مصلحة، لبعض الناس، فى الإلحاح على أسماعنا بأن شيئا جديدا وطيبا للغاية، اسمه العولمة، آخذ فى اكتساح الكون).

ومن أى زاوية نظرنا إلى العولمة، سواء من زاوية معدل انتقال الأشخاص أو معدل انتقال السلع أو رؤوس الأموال أو المعلومات أو

الأفكار، نجد وراء هذا كله تطور فى التكنولوجيا (أو «تقدم» فيها كما هو شائع على الرغم من أن اعتبار ما حدث من تطور تكنولوجى «تقدما» فى جميع الأحوال هو محل نظر وقابل للجدل). فالعولمة بنت التطور (أو التقدم) التكنولوجى، سواء تمثل هذا التطور فى اختراع العجلة أو البوصلة أو المطبعة أو الآلة البخارية أو التلغراف أو الطائرة أو التليفزيون أو الكومبيوتر.. الخ. والاعتقاد الشائع بأن العولمة ظاهرة حتمية لا يمكن صدها أو الوقوف فى وجهها، سببه الاعتقاد بأن التطور (أو التقدم) التكنولوجى هو كذلك ظاهرة حتمية.

ولكن العولمة أيضا تحمل دائما فى طياتها نوعا أو آخر من «الغزو الثقافى»، أى من قهر الثقافة الأقوى لثقافة أخرى أضعف منها. فالذى فعله المهاجرون الأوائل إلى القارة الأمريكية بالهنود الحمر كان نوعا من «الغزو الثقافى»، وإن كان بالغ القسوة، وقل مثل ذلك عما فعله المهاجرون الأوروبيون إلى استراليا لسكانها الأصليين، وسائر صور الاستعمار الأخرى، التى هى أيضا صور للعولمة وللغزو الثقافى فى نفس الوقت..

كل هذه الصور للغزو الثقافى كان من الممكن دائما أن ننظر إليها نظرات متعددة، كتلك التى وصفتها فى مطلع هذا الفصل، والتى تنتشر بيننا اليوم. فقد كان من الممكن دائما أن نصف ظاهرة الغزو الثقافى بأنها اعتداء رأسمالى على الهوية الثقافية للأمة المعتدى عليها من أجل استغلالها اقتصاديا، كما يمكن أن نصفها بأنها غزو دين لدين، أو إحلال ثقافة أمة محل ثقافة أخرى، كما أن من الممكن أن يوجد (وقد وجد

بالفعل) المدافعون عن هذا الغزو الثقافى باسم تعظيم الإنتاج ونشر الحضارة . بحجة نشر الحضارة جاء نابليون إلى مصر، وبنفس الحجة قهر الاستعماريون الأوائل مختلف الأمم الأقل تقدما. وبحجة زيادة الإنتاج غزت الولايات المتحدة أمة بعد أخرى متخفية وراء المعونات الاقتصادية، واستخدمت حجة زيادة الإنتاج أيضا وتعمير الأرض من جانب الصهاينة لتبرير استيلائهم على فلسطين، وبنفس الحجة انتشر موظفو البنك الدولى وصندوق النقد فى مختلف أنحاء الأرض، وقد قامت حركات المقاومة ضد كل هذا باسم الدين مرة، وباسم القومية مرة، وباسم الاشتراكية ومقاومة الاستغلال الرأسمالى مرة.. إلخ.

العولمة قديمة إذن، وكذلك الغزو الثقافى، وكذلك مقاومة هذا الغزو الثقافى، وكل الشعارات التى ترفع لتبرير العولمة أو لمقاومتها، قديمة أيضا. إن من المفيد بالطبع لفت النظر إلى التسارع الهائل الذى حدث فى معدل العولمة فى العقود الأخيرة، ولكن من المفيد أيضا (من حين لآخر) لفت النظر إلى أنه مجرد تسارع حديث لظاهرة قديمة ومستمرة.

ولكن من الضرورى أيضا التأكيد على العامل الأساسى المسئول عن نشأة هذه الظاهرة، ظاهرة العولمة، واستمرارها وتسارعها، وهو التقدم أو التطور التكنولوجى . ذلك أنه من بين كل العوامل الدافعة أو المساعدة أو المصاحبة للعولمة، يكاد التطور التكنولوجى أن يكون أكثر هذه العوامل استقلالا، بحيث لا يكاد يحتاج المرء إلى البحث عن العوامل المسببة له، أو بالأحرى إنه أكثر العوامل المتصلة بالعولمة اكتفاء بنفسه، إذ لا يعتمد فى وجوده إلا على ذلك الميل الطبيعى لدى الإنسان لتخفيف ما يبذله من

جهد وما يتحمله من مشقة فى سبيل البقاء على قيد الحياة، أو من أجل الإنتاج والاستهلاك.

الإنسان يطور التكنولوجيا باستمرار، وكأنه مدفوع «بيد خفية» إلى ذلك، من أجل أن يشبع حاجاته بأقل جهد ممكن، وهو فى خلال تطويره للتكنولوجيا يندفع، دون أن يكون هذا بالضرورة جزءا من مخطط واع ومدبر، نحو المزيد ثم المزيد من العولمة.

بهذا نفهم لماذا تقترن العولمة دائما بدرجة أو أخرى من القهر الثقافى. ذلك أن هذا التقدم التكنولوجى، الذى يدفع الإنسان دفعا إلى مزيد من العولمة، ينطوى بطبيعته على تهديد للهوية الثقافية. إن هذا التقدم التكنولوجى الذى يظنه الكثيرون شيئا محايدا تماما إزاء الهوية الثقافية، يحمل دائما خطرا يهدد هذه الهوية وهذا هو ما أريد أن أنفق بعض الوقت لإقناعكم به.

## (٣)

# التقدم التكنولوجى كأداة للقهر

الهوية معناها فى الأساس التفرد. والهوية الثقافية هى التفرد الثقافى، بكل ما يتضمنه معنى الثقافة من عادات وأنماط سلوك وميل وقيم ونظرة إلى الكون والحياة.

والتكنولوجيا فى الأساس مجرد طريقة الإنسان فى إشباع حاجاته: طريقة إنتاج أو طريقة استهلاك ، ومن ثم فهى طريقة الإنسان فى ممارسة عاداته ومختلف أنواع سلوكه وطريقته فى التعبير عن ميوله وقيمه وعن نظرته إلى الكون والحياة.

ومن البديهى أن أى تقدم فى التكنولوجيا لابد أن ينطوى على زيادة قدرة الإنسان على تحقيق تفرده والتعبير عن نفسه ، فلماذا نفترض أن من الممكن أن ينشأ تضاد أو تعارض بين التكنولوجيا والهوية؟ أليست التكنولوجيا هى وسيلة تحقيق الهوية وطريقة التعبير عنها؟ أليست اللغة مثلا تكنولوجيا التعبير؟ وهل خدمة اللغة وتطويرها (أى تطوير هذا النوع من تكنولوجيا الاتصال بين الناس) يمكن أن تكون إلا خادمة للهوية؟ وقل مثل هذا عن المطبعة ، التى تنشر ثقافة الأمة وتدعمها ، وأدوات الكتابة والتسجيل والتخزين التى تحفظ تراث الأمة من الضياع.. الخ. من أين إذن يأتى هذا التضاد المزعوم بين التقدم التكنولوجى والهوية؟.

هناك فى رأيى فرص كامنة لهذا التضاد منذ قام الإنسان بصنع أولى أدواته وأكثرها بدائية ، أى منذ أولى مراحل التطور التكنولوجى. فمنذ

صنع الإنسان أولى أدواته الحجرية لتسهيل عملية الصيد ، ضمانا لبقائه وتحقيقا أكبر لذاته ، كان هناك دائما خطر فى أن تستبد به هذه الأدوات نفسها وتتحول إلى أداة لقهره بدلا من أن تكون أداة لتحريره. إن القول الشهير بأن الأداة هى نفسها الرسالة ( The medium is the message) ، ينطبق فى الحقيقة على أكثر صور التكنولوجيا بدائية كما ينطبق على أكثرها تطورا. وهو قول لا يعنى فقط أن طبيعة التكنولوجيا المستخدمة تؤثر تأثيرا حاسما فى طبيعة العمل الذى تستخدم لتحقيقه ، بل هو يعنى أيضا ، على الأقل بالنسبة لى ، أن التكنولوجيا يمكن أن تتحول بكل سهولة من أداة لخدمة الإنسان إلى أداة لقهره.

إن هناك عدة تفسيرات ممكنة لانطواء أى تقدم تكنولوجى على إمكانية القهر. هناك مثلا ما أشار إليه لويس ممفورد (Lewis Mumford) من أن الإنسان معرض دائما لأن يعتبر شيئا ما مرغوبا فيه لمجرد أنه قد أصبح ممكنا ، كأن يعتبر الانتقال من مكان لآخر بسرعة الصوت شيئا مرغوبا فيه لمجرد أن اختراعا حديثا قد جعل هذا ممكنا. وليس هناك أى قانون يضمن للإنسان أن يقتصر فى تطويره للتكنولوجيا على تلك الدائرة التى تتفق مع طبيعته فلا يتجاوزها. ليس هناك ما يضمن للإنسان أن يتجنب ابتداع وسائل للإنتاج أو الاستهلاك تتجاوز قدرته البيولوجية أو النفسية على التحمل ، فإذا به يذهب فى تطوير التكنولوجيا إلى حدود قد تتعارض تعارضا جسيما مع الهدف الذى كان يبتغيه ابتداء ، وهو تخفيف أعباء الحياة وزيادة قدرته على الاستمتاع بها بل وحتى المحافظة على بقائه. ليس هناك مثلا ما يحمى الإنسان ، وهو فى سبيل

السعي إلى إطالة وقت فراغه ، من أن يبتدع من طرق الإنتاج أو الاستهلاك ما يقصر وقت الفراغ بدلا من أن يطيله ، وليس هناك ما يحميه ، وهو في سبيل السعي إلى تحقيق مزيد من الاطمئنان إلى مستقبله ، إلى اختراع ما يجعله أكثر قلقا وأقل اطمئنانا. وقد يكون التفسير هو حاجة الإنسان الدفينة إلى إثبات تفوقه على غيره ، فإذا به يحاول أن يستأثر دون غيره بالأدوات المتاحة (سواء كانت سلاحا أو أداة إنتاج أو حتى أداة من أدوات الاستهلاك) لمجرد الاستمتاع بتفوقه على الغير عن طريق قهره له. وقد يكون تفسير هذه القدرة الكامنة في التكنولوجيا ، خاصة في التكنولوجيا الحديثة ، على أن تصبح أداة قهر ، هو ما تنطوي عليه من زيادة درجة النمطية (Standardization) في عملية الإنتاج (ومن ثم في عملية الاستهلاك كذلك). إذ أن النمطية بطبيعتها نقيض التفرد. فتسهيل عملية الإنتاج ينطوي على زيادة درجة تقسيم العمل أو التخصص ، وميكنة الإنتاج. وتقسيم العمل والميكنة ينطويان بالضرورة على زيادة درجة التكرار والتماثل فيما يجري إنتاجه واستهلاكه ، فإذا بالإنتاج المتفرد يحل محله «الإنتاج الكبير أو الواسع» ، أي الإنتاج النمطي ، وإذا بالاستهلاك المتميز يتحول إلى استهلاك جماهيري ، تدفع الهوية من أجله ثمنا باهظا.

أيا كان السبب ، فإن من المؤكد أن التكنولوجيا الحديثة ، أي ما طوّره الإنسان من وسائل للإنتاج والاستهلاك خلال القرنين الماضيين ، وعلى الأخص خلال نصف القرن الأخير ، كانت تحمل خطر إخضاع الإنسان للقهر ، وتهديدًا لهويته وآدميته أكبر مما تعرض له الإنسان طوال

تاريخه الطويل. إن إغراء الممكن تكنولوجيا ، والظن بأنه لمجرد أنه قد أصبح ممكنا ، هو أيضا مرغوب فيه ، أكبر الآن ، فيما يبدو من أى إغراء من نفس النوع تعرض له الإنسان من قبل. كما أن خطر هذا الظن أكبر بكثير منه فى أى وقت مضى. ذلك أن تطوير الإنسان لتكنولوجيا تتجاوز استعداداته وقدراته الطبيعية على التحمل ، وتهدد توازنه المادى والنفسى، تزداد احتمالاته كلما زاد التطور التكنولوجى.

كذلك فإن شهوة السيطرة وقهر الآخرين تبدو وكأنها تزداد قوة وسطوة كلما زاد حجم هذه السيطرة وهذا القهر ، كما يبدو مثلا من شهوة الشهرة فى ظل وسائل الإعلام الحديثة ، وشهوة جمع المال مع تضاعف حجم الثروة التى أصبح من الممكن تحقيقها ، وشهوة إخضاع الآخرين بالقوة المادية ، كلما زادت فعالية الأسلحة المنتجة.

أما النمطية فى المجتمع التكنولوجى الحديث فحدث عنها ولا حرج، ليس فقط بسبب زيادة القدرة الإنتاجية لنفس السلعة بنفس المواصفات ، أضعافا مضاعفة ، ولكن أيضا بسبب زيادة فعالية وسائل الإعلام ونقل المعلومات والأفكار. وقد أدت هذه النمطية إلى ما نعرفه من تطور رهيب فى فن الإعلان والتسويق وتطويع المستهلكين . وهو ما جعل من مبدأ سيادة المستهلك الشائع لدى الاقتصاديين ، خرافة لا علاقة بينها وبين الواقع.

عندما أنتج شارلى شابلن فيلمه الشهير «العصور الحديثة» (Modern Times) فى ١٩٣٦ ، كانت فكرته الأساسية ما يفعله المجتمع الحديث بآدمية الإنسان وتفرده أو هويته. وكان الرمز الذى استخدمه

شارلى شابلن للتكنولوجيا الحديثة هو خط التجميع (Assembly line) وهو شيء يجرى داخل المصنع نفسه ، ولم يتطرق لما يحدث للمستهلكين خارجه. بعد ذلك بنحو ثلاثين عاما (١٩٦٨ وما بعدها) قامت ثورة الشباب في أوروبا والولايات المتحدة احتجاجا على ما أسفر عنه مجتمع الوفرة فى العقدين التاليين على الحرب ، من اعتداء على آدمية الإنسان وتفرده وهويته ، وكان الرمز الذى وجه إليه الاحتجاج هذه المرة ، لا ما يجرى للعمال داخل المصنع ، بل ما يحدث للمستهلكين خارج المصانع من تنميط ينذر بتحول كل منهم إلى «إنسان ذى بعد واحد» (one dimensional man) كما سمّاه هربرت ماركوز (Herbert Marcuse). بعد مرور ثلاثين عاما أخرى ظهر أن الخطر قد فاق كل هذا، وتجاوزه حتى بلغ مركز المخ والتفكير نتيجة لما يسمى بثورة المعلومات. إذ لم يقتصر الخطر على تهديد تفرّد الإنسان كعامل منتج ، بدعوى ضرورة ذلك لزيادة الإنتاج ، ولا على تهديد تفرد الإنسان كمستهلك ، بدعوى ضرورة ذلك لتحقيق مجتمع الرخاء ، بل أصبح يشكل تهديدا لتفرد الإنسان ككائن عاقل يمارس ملكة التفكير ، بدعوى ضرورة ذلك لنشر أكبر قدر من المعلومات. كان من أحدث الأمثلة الصارخة على هذا التهديد الأخير ، هو ما التفتت إليه أنظارنا بشدة بمناسبة مصرع الأميرة ديانا ، عندما رأينا عدة بلايين من الناس ، فى كافة أنحاء الكرة الأرضية ، على استعداد للاستسلام التام للبث التليفزيونى والإعلامى حول هذا الحادث. وكان هؤلاء البلايين قد استسلموا تدريجيا ، قبل وقوع الحادث ، لما تقرره عليهم وسائل الإعلام وتفرض عليهم متابعته و«الاستمتاع به» من أخبار وصورة الأميرة التعسة التى حوّلها المجتمع التكنولوجى الحديث إلى مضغة فى الأفواه ، وقتل

روحها فى نفس الوقت الذى كان يمارس فيه قتل أرواح المتلهفين على متابعة أخبارها.

وقبل مصرع الأميرة ديانا بسنوات قليلة شغلت شعوب العالم وعلى الأخص الشعب الأمريكى ، بفضل وسائل التكنولوجيا الحديثة بحادث قتل زوجة شخص اسمه سيمبسون (E.J.Simpson) وعشيقها ، فأجبر العالم على الاهتمام بالسؤال التافه الآتى: هل سيمبسون هذا ، وهو رجل لا يستحق قدرا كبيرا من الاهتمام على أى حال ، هو القاتل الحقيقى لزوجته وعشيقها؟ وهما شخصان لا يستحقان بدورهما قدرا كبيرا من الاهتمام. وظل الجمهور الأمريكى وجزء لا يستهان به من جماهير بلاد أخرى مشغولين بهذا الأمر كل يوم لعدة شهور. وبعد مصرع الأميرة ديانا بشهور قليلة انشغل العالم كله ، بفضل وسائل التكنولوجيا الحديثة ، بتفاصيل المغامرات الجنسية الخاصة برئيس الجمهورية الأمريكية وبميوله وعاداته الخاصة به فى هذا الصدد.

## (٤)

# هوية الإنسان وثقافة الأمة

إن ما تفعله التكنولوجيا الحديثة بهوية الإنسان داخل الدولة الواحدة، تفعل مثله بثقافات مختلف الأمم فى العالم ككل. فكما خلبت التكنولوجيا الحديثة لب المستهلك الفرد حتى استسلم لها ، خلبت لب الأمم فضّحت الواحدة بعد الأخرى بجزء بعد آخر من استقلالها الثقافى. وكما استخدمت التكنولوجيا الحديثة من جانب طبقة لقهر الطبقات الأخرى داخل الأمة الواحدة ، استخدمت من جانب الأمم المتقدمة تكنولوجيا لقهر سائر الأمم. وكما انتشرت النمطية فى الإنتاج والاستهلاك داخل الدولة الواحدة ، انتشرت فى سائر أمم العالم حتى أصبح من الصعب على المرء أن يعرف ما إذا كان يسير فى شوارع روما أم مدريد ، تسير به السيارة الخاصة فى وسط القاهرة أو وسط نيودلهى أو جاكارتا أو مدينة المكسيك ، يأكل طعامه فى ماكدولاند لندن أم ماكدولاند نوس أنجلوس أم ماكدولاند بانجوك ، ولم يعد أمام مشاهد التليفزيون المصرى أو الهندى أو الكينى أو البرازيلى مفر ، مثلما لم يعد هناك مفر أمام المشاهد الإنجليزى أو الأمريكى ، من أن يشاهد مسلسل دالاس التليفزيونى ، ولا أصبح بقدرته أن يمتنع عن رؤية فيلم تايتانيك ، أو عن متابعة نشرات أخبار (C.N.N). هذا الأثر من آثار التقدم التكنولوجى فى طمس الهوية الثقافية للأمم لا يختلف فى طبيعته عن أثره فى الاعتداء على هوية الإنسان الفرد داخل الأمة الواحدة ، فالأثر بشع فى الحالتين والخسارة فادحة ، وإن كانت تستخدم فى وصفه أسماء براقة. فما يرتكب ضد هوية الفرد داخل الأمة الواحدة ، يحدث تحت شعار

زيادة الرفاهية الاقتصادية ، وكأن الرفاهية الإنسانية يمكن تجزئتها إلى جزء اقتصادى وجزء غير اقتصادى. وما يرتكب ضد الهوية الثقافية للأمم يحدث تحت شعار «التنمية الاقتصادية» ، وكأن نهضة الأمم لا تقاس إلا بمتوسط دخل الفرد من السلع والخدمات.

ومن الغريب أن القلق المتزايد ، داخل المجتمعات المتقدمة اقتصاديا ، من التهديد الذى تتعرض له بعض أنواع الحيوانات والطيور التي يهددها التقدم التكنولوجى بالانقراض ، لا يقابله قلق لما يحدث لثقافات الأمم المختلفة من وراء هذا التقدم التكنولوجى نفسه ، مع أن هذه الثقافات مهددة هى أيضا بالانقراض ، والخسارة فى هذه الحالة لا تقل فداحة.

## (٥)

# ليست دعوة إلى الرجعية
# بل إلى التحرر الحقيقى

هذا الجزع مما يحدث للهوية الثقافية للأمة لا ينطوى بالضرورة على موقف رجعى متخلف كما يظن البعض ، ولا يتضمن بالضرورة دعوة إلى رفض لكل تقدم تكنولوجى والعودة إلى ماض ذهبى أو التمسك بحاضر بغيض. لا أحد ينكر أن للتطور التكنولوجى دائما دورًا تحريريًا ، ولكن ليس من الحكمة أن نغفل عن جانبه القهرى ، خاصة فيما ينطوى عليه المجتمع التكنولوجى الحديث.

وإذا كان المفتونون بالمجتمع التكنولوجى الحديث مولعين بوصف نقادهم بالرجعية والتخلف والحنين إلى كل ما هو قديم ، فإن من الممكن أن نتهمهم هم بالانتهازية وتبرير أى شىء يحدث تحت شعار مجاراة متطلبات العصر. ولكن المرء ليس مضطرا لحسن الحظ أن يقع فى هذا الخطأ أو ذاك.

خذ مثلا السؤال عما يجب أن تصنعه سياسة اقتصادية واجتماعية رشيدة بمنطقة لم تستغل الاستغلال الأمثل بعد ، مثل سيناء أو توشكى. إننا لحسن الحظ لسنا مضطرين إلى اختيار حل واحد من اثنين ولا ثالث لهما: إما أن نترك سيناء أو توشكى كما ورثناها من أجدادنا منذ آلاف السنين (وهذا هو الموقف الرجعى أو المتخلف حقا) أو أن نتركها نهبا للشركات متعدية الجنسيات لتبنى فيها فنادق الخمسة نجوم ، أو لكى

تبنى فيها مطارات تملكها شركات عملاقة تنتج فيها محصولات تصديرية لا تخلق فرصة عمل لأحد (وهذا هو موقف الداعين إلى مجاراة روح العصر أو مقتضيات العولمة).

وفى حل مشكلة الإسكان لمنا لحسن الحظ مضطرين إلى اختيار حل واحد من اثنين: إما أن نترك الناس يسكنون المقابر أو فى مساكن كالمقابر، أو أن نطردهم من مساكنهم لنبنى مكانها عمارات شاهقة لا تقدر على دفع إيجاراتها إلا وكالات الشركات الدولية.

بعبارة أخرى ، إن من حق المرء أن ينتقد المجتمع التكنولوجى الحديث دون أن يكون شخصا حالما لا يقدم بديلا له إلا القعود ساكنا ولا يفعل شيئا إلا التحسر على الماضى. بل إن من حسن حظ أمتنا أنها فى كل ميدان من ميادين الإبداع الفكرى والفنى والاقتصادى والاجتماعى والسياسى قدمت أمثلة ناصعة على وجود هذا البديل وقدمت أدلة عملية على إمكانية إحراز النهضة دون التضحية بهوية الأمة.

ويكفى أن أذكر مثالين لذلك: حسن فتحى فى المعمار ، ونجيب محفوظ فى الأدب ، وقد أنتج كل منهما أفضل أعمالهما قبل أن تجرى عولمتهما ، بل وكان ثانيهما من أقل مفكرينا عولمة قبل أن يحصل على جائزة نوبل ، ولم تطأ قدماه مطار القاهرة إلا مرة أو مرتين فى حياته ، وكان يفضل ألا يفعل. ولكن من الممكن أن أضرب أمثلة أخرى من كل ميدان من ميادين الإبداع ، من الموسيقى والشعر ، إلى الفنون التشكيلية والسينما ، إلى الفكر السياسى والاجتماعى.. الخ ففى كل هذه الميادين لدينا من لم يعجز عن تقديم البديل الذى أتكلم عنه: الرغبة الصادقة فى

النهضة مع احترام هوية الأمة في نفس الوقت. ولكن معظم هؤلاء للأسف عوملوا معاملة فظة من جانب الدولة أو جرى تجاهلهم على الأقل لأنهم لم يجاروا العولمة بالدرجة الكافية أو بالانتهازية المطلوبة. وحتى المثالان اللذان ضربتهما: حسن فتحي ونجيب محفوظ ، لم يحظيا منا للأسف بما كانا دائما جذيرين به من احتفاء حتى أصابتهما العولمة. ولكن كلا منهما وسائر الأمثلة الأخرى التي تجمع بين النبوغ واحترام الهوية ، تقدم دليلا ناصعا على أن النهضة ليست مرادفة للرضوخ للعولمة ، وليست مرادفة للرضوخ لقواعد السير والسلوك التي يفرضها المجتمع التكنولوجي الحديث.

## (٦)

# مناقشة لوجهات النظر الأخرى

إن ما ذكرته عن دور التكنولوجيا فى القهر ، هو كلام قديم بالطبع ، يعود على الأقل إلى البدايات الأولى للثورة الصناعية فى أوروبا ، ولكن كان لابد أن يقال من جديد ما دمنا نتكلم عن أثر العولمة على الهوية الثقافية. كذلك فإنى لا أزعم أن وجهة نظرى فى التأكيد على دور التكنولوجيا فى العولمة وعلى مسئولية المجتمع التكنولوجى الحديث عن طمس الهوية ، لا أزعم أنها جديرة بأن تحلّ محل وجهات النظر الأخرى فى تحليل العولمة وأثرها على الهوية الثقافية. فكل وجهات النظر الأخرى التى أشرت إليها فى بداية ورقتى تحمل ، كما ذكرت ، جزءا مهما من الحقيقة. ولكنى مع ذلك أريد أن أزعم أن هذا التأكيد على مسئولية التكنولوجيا الحديثة يوضح أشياء جديرة بالاهتمام ، كما يوضح نقاط ضعف مهمة فى وجهات النظر الأخرى.

فهذا التأكيد ضرورى أولا لكى ينبّه الغافلين من المتحمسين حماسا منقطع النظير للتكنولوجيا الحديثة بسبب دورها فى زيادة الإنتاج ، إلى أن هذه التكنولوجيا الحديثة كثيرا ما تعطى الإنسان باليمين ما تسلبه منه باليسار . والمفروض أيضا أن يخفف هذا النقد للتكنولوجيا الحديثة من حماس أولئك المفتونين أكثر من اللازم بالحضارة الغربية الحديثة ، إذ المفروض أن يلفت نظرهم إلى نقاط ضعف أساسية فى هذه الحضارة.

ولكن هذا التأكيد على دور التكنولوجيا الحديثة فى القهر ضرورى أيضا لكى يلفت النظر إلى أن كثيرين من المعادين للعولمة قد يكونوا قد

شخصّوا المرض تشخيصا غير صحيح تماما ، ومن ثم وجهّوا سهام غضبهم إلى جوانب من العولمة ليست هى أكثرها استحقاقا لهذا الغضب ، ولا هى أكثرها مسئولية عن طمس الهوية الثقافية.

المتدينون على حق تماما فى القلق مما يهدد دينهم وعقيدتهم من جراء العولمة ، ولكن كثيرين منهم يخطئون فى رأيى عندما يصوّرون الأمر على أنه عدوان من دين على دين. إن ما يحدث للمسلمين اليوم من جرّاء العولمة له شبه بلا شك بما كان يواجه المسلمين أيام الحروب الصليبية ، ولكن التأكيد على هذا الشبه يعطى انطباعا غير صحيح ، إذ قد يصوّر الأمر على أننا بصدد معركة بين أمم مسيحية وأمم مسلمة ، أو بين دين وآخر ، والحقيقة أن الأديان كلها تتعرض لنفس الخطر ونفس الاعتداء ، ولو بدرجات متفاوتة ، من جراء ما أسميته بالمجتمع التكنولوجى الحديث. إن ما تفعله التكنولوجيا الحديثة مثلا باحتفال المسلمين بشهر رمضان اليوم من تحويله من مناسبة دينية إلى مناسبة استهلاكية ، فعلته هذه التكنولوجيا من قبل ، ومازالت تفعله ، أكثر فأكثر، باحتفال المسيحيين بأعياد الميلاد ، وقل مثل هذا على ما ينطوى عليه المجتمع التكنولوجى الحديث من تهديد وقهر لأى عقيدة دينية.

إن الدين هو بالطبع مكون أساسى من مكونات هوية الأمة ، والقلق عليه واجب وضرورى من جانب أى شخص يعتز بهوية أمته ويرفض لها المهانة. ولكن من الخطأ فى رأيى حصر الهوية الثقافية للأمة فى دائرة الدين ، أو حصرها فى دائرة دين معين ، بينما يعانى أصحاب الديانات

الأخرى ، المنتسبين لنفس الأمة ، لدرجة مماثلة من القهر على يد هذا المجتمع التكنولوجى الحديث.

كذلك فإنه قد لا يكون صحيحا تماما ، تصوير قضية الخطر الذى تتعرض له الهوية الثقافية بأنها قضية غزو ثقافة لثقافة ، أى فرض أمة لثقافتها على أمة أخرى. إن فى هذا جانبا من الحقيقة ولكن هناك جانبا آخر لابد من إبرازه. ليس هناك خطأ فى القول بأن هويتنا الثقافية تتعرض لغزو من الثقافة الغربية أو الأمريكية . أو فى القول بأن نمط حياتنا وسلوكنا وعاداتنا فى المأكل والملبس والعلاقات الاجتماعية وطرق قضاء أوقات الفراغ.. الخ تتعرض كلها للغزو أو القهر من جانب نمط حياة أمة أو أمم أخرى. ولكن المرء يلاحظ أن هذا الغزو أو القهر له سمة خاصة فى ظل المجتمع التكنولوجى الحديث ، وأن غزو هذه الثقافة الأجنبية إذ يتم فى عصر التكنولوجيا الحديث يختلف عن غيره من صور الغزو الثقافى التي عرفها تاريخ الإنسان من قبل ، وهو اختلاف يستحق التأمل ولا يجوز غض النظر عنه.

قرأت مرة لسمير أمين عبارة ترجمتها أن «الرأسمالية هى نفى للثقافة أصلا» (Capitalism is the negation of culture) ، وإنى أستأذنه (وإن كنت أعرف أنه لن يأذن لى) فى أن أستبدل بكلمة الرأسمالية هنا عبارة «المجتمع التكنولوجى الحديث». فالغزو الثقافى الذى يتم فى ظل التكنولوجيا الحديثة يمكن أن يعتبر حقا غزو ثقافة لثقافة ولكن فيه أيضا سمة «نفى الثقافة أصلاً». ذلك أن الثقافة الغازية فى هذه المرة تتسم بعدائها المستحكم للتفرد ، أى بعدائها لأية هوية ، وهذا هو ما أفهمه من عبارة «نفى الثقافة». وهذه الثقافة الغازية ، وإن كانت بالطبع صادرة

من أمة بعينها ، ابتدعها خيال هذه الأمة ونوازعها وطموحاتها ، فإنها أيضا تعبّر عن عداء شديد لأى صورة من صور التفرد والتميز ، بل وتسحق هذا التفرد والتميز سحقا.

سأضرب بعض الأمثلة على ما أعنيه. إن من الممكن بالطبع أن نعتبر غزو «البلوجينز» للعالم بأسره ، غزو ثقافة لأخرى ، ولكن من الممكن أيضا اعتباره نفيا للثقافة أصلا ، إذ أنه يطيح ، فيما يتعلق بالملبس ، بكل ما يميز فردا عن آخر ، أمة عن أخرى ، بل وبما يميز الذكر عن الأنثى ، مادام قد أصبح هو سروال الجميع.

مثل هذا ينطبق على الهامبورجر والماكدولاند ومختلف المأكولات والمشروبات السريعة ، التى لا تكاد تحتاج إلى طهى ، ولا إلى أدوات لالتهامها ، ولا تتطلب الجلوس أو تبادل الحديث أثناء تناولها ، بل ولا تكاد تحمل فى ذاتها مذاقا خاصا بل تحتاج إلى إضافات أشياء مختلفة إليها لتثير الرغبة فيها. إنها تشبع الجوع ، وهذا هو كل ما فى الأمر ، وهى فى هذا ذات كفاءة منقطعة النظير ، إذ أنها تشبع الجوع بسرعة وبأقل جهد ممكن ، بل ودون أن تمنعك من القيام بعمل آخر أثناء تناولها. نعم إنها ثقافة أمريكية . ولكنها أيضا ليست ثقافة أصلا.

إن شيئا كهذا موجود دائما ، ولو بدرجات متفاوتة ، فى كل ما يأتى به إلينا المجتمع التكنولوجى الحديث: طعام هو فى الحقيقة لا طعام على الإطلاق ، وملبس هو فى الحقيقة لا ملبس ، وأخبار هى فى الحقيقة شبه أخبار. والفرق بين كل هذا وبين الثقافة هو كالفرق بين الصورة الفوتوغرافية ولوحة الرسم. إن الكاميرا هى بالطبع نتاج ثقافة

بعينها ، وغزوها للعالم يمكن اعتباره من زاوية معينة غزوا من ثقافة لأخرى ، ولكن الكاميرا هى أيضا نفى للثقافة بمعنى أنها تطمس أى تفرد يمكن أن تتسم به لوحة رسمها فنان وأودعها مشاعره ونوازعه وطموحاته.

وأخيرا آتى لمناقشة وجهة النظر التى استأذنت بصددها سمير أمين وتوقعت أن يرفض إعطائى الإذن بشأنها. هل الغزو الثقافى الذى يحدث فى ظل العولمة هو مجرد غزو من جانب الرأسمالية لنظم اقتصادية وتنظيمات اجتماعية غير رأسمالية؟ هل الذى حدث لأوروبا الشرقية مؤخرا هو مجرد اكتساح من جانب الرأسمالية لتنظيم اجتماعى واقتصادى مغاير؟ هل غزو البلوجينز والماكدولاند والـ C.N.N ومسلسل دالاس وأفلام الجنس والعنف والسيارة الخاصة.. الخ ، هل كل هذا مجرد اكتساح لثقافات غير رأسمالية من جانب ثقافة رأسمالية؟.

أعترف هنا أيضا بأن هذا الرأى يلمس جانبا مهما من الحقيقة ، ولكنى أميل أيضا إلى الاعتقاد بأنه لا يضع يده على جوهر الظاهرة التى تثير قلقنا. إن من الممكن مثلا أن نلفت نظر أصحاب هذا الرأى إلى أن أوروبا الشرقية ، بتبنيها نظاما اشتراكيا ، أو نظاما غير رأسمالى ، قد سحقت التفرد والهويات الثقافية للأمم الخاضعة لها ، بدرجة قد تكون أقل أو أكثر مما قامت به الدول الرأسمالية من سحق شعوبها وشعوب غيرها ، وأن هذا السحق أو القهر الذى مارسته الدول الاشتراكية قد حدث بالرغم من الملكية العامة ومن نظام التخطيط المركزى وبالرغم من كل ما تبنته هذه الدول ، سواء عن حسن نية أو سوء نية ، من شعارات العدالة والإنسانية، وذلك لمجرد أنها تبنت مثل غيرها نفس نوازع

ومطامح المجتمع التكنولوجى الحديث ، وأن كل ما قد يكون قد بدر منها من احترام للتفرد والهوية الثقافية للأمم الخاضعة لها لم يكن سببه إلا تخلفها عن اللحاق بآخر مستلزمات هذا المجتمع التكنولوجى الحديث ، ويمكن لنا أن نطمئن إلى أن ما تخلفت عنه فى الماضى سوف تستكمله بسرعة من الآن فصاعدًا.

يمكن إذن أن نقول إن الذى انتصر على الاتحاد السوفيتى وبقية أوروبا الشرقية ، والآخذ فى الانتصار فى الصين وغيرها ، لم يكن الرأسمالية على الاشتراكية ، بل كان الذى انتصر هو المجتمع التكنولوجى الحديث ، الذى يحدث آثاره المدمرة على التفرد والهوية الثقافية ، سواء اقترن بملكية خاصة أو عامة ، بالتخطيط المركزى أو بغيره ، بحسن توزيع الثروة والدخل أو بسوء هذا التوزيع ، وأن الفارق بين النظامين هو فى نهاية الأمر ، ليس كالفارق بين ارتداء البلوجينز أو ارتداء سروال من نوع آخر ، بل هو كالفارق بين أن يكون لدى كل امرئ بلوجينز واحد وأن يكون لديك بلوجينز واحد ولدى الآخر اثنان أو أكثر، ولكن من نفس النوع.

إن هذا يؤيده ليس فقط ما حدث فى أوروبا الشرقية فى ظل الاشتراكية ، بل يؤيده المنطق أيضا. فالأسباب الثلاثة التى ذكرناها ، والتى يمكن بها تفسير الجانب القهرى فى التقدم التكنولوجى ، تنطبق على أى نظام يقبل هذا التقدم التكنولوجى ويسعى إليه أيا كان نظام توزيع الثروة والدخل. ففى جميع الأحوال ، سواء كان النظام رأسماليا أو اشتراكيا ، سيحمل التقدم التكنولوجى فى طياته احتمال تطبيق ما أصبح

ممكنا من تقدم تكنولوجى سواء كان مرغوبا أو غير مرغوب فيه ، وحتى لو تعارض مع الميول الطبيعية للإنسان ، وسيحمل فى طياته إتاحة الفرصة لكل من يرغب فى إثبات تفوقه بفرض سيطرته على الآخرين باحتكار استخدام الوسائل التكنولوجية الحديثة ، كما سيحمل فى طياته بالطبع مزيدا من التنميط فى الإنتاج والاستهلاك مما يهدد التفرد والتميز.

بعبارة أخرى ، ليس لدى ثقة كبيرة فى أن يحل «النظام الاشتراكى» بأى معنى من المعانى المعروفة لهذا النظام ، مشكلة التفرد والهوية الثقافية ، طالما أنه يقبل بلا مساءلة مقتضيات التطور التكنولوجى الحديث. إنه قد يحل مشكلة التوزيع ، ولكنه لا يحل مشكلة الهوية. وأظن أن هذا هو أحد الأخطاء الكبيرة التى وقع فيها ماركس ، وإن كان من الممكن بالطبع أن نجد له العذر فى أن اهتمامات عصره لم يكن من الممكن أن تذهب إلى أبعد من هذا. كانت مشكلة الفقر هى التى تؤرقه وتؤرق عصره ، وكان حلها هو فى عدالة التوزيع ، أما طبيعة هذه الأشياء التى يجرى توزيعها ، ومدى ملاءمتها أو عدم ملاءمتها للطبيعة الإنسانية، فلم يكن أمرا مطروحا على النقاش ، وربما كان أحد أسباب ذلك نفور ماركس والماركسيين عموما من أى فكرة تفترض وجود طبيعة ثابتة.

قد يقال بالطبع إن ما حدث فى أوروبا الشرقية بعد ثورة أكتوبر لم يكن اشتراكية حقيقية ، أو أن ماركس كانت له كتابات مبكرة تعبر عن كثير من همومنا الحالية. ولكن البحث عن التعريف «الحقيقى» للاشتراكية لا يهمنا كثيرا ، كما أن البحث عما كان يدور فى ذهن

ماركس «حقيقة» ليس هو ما يهمنا ، فحتى إذا اتفقنا على تعريف الاشتراكية بأنها تشمل أيضا احترام التفرد والهوية الثقافية ، وعلى أن ماركس كان قلقا على هذه المشكلة أيضا كقلقه على مشكلة الفقر والتوزيع، فإننا لا نكون بذلك قد قدمنا تشخيصا للمشكلة يختلف عما نقول به في هذا الفصل ، وإنما نكون فقط قد حاولنا إنقاذ سمعة بعض النظم أو بعض الأشخاص.

□□□

إذا كان التحليل المتقدم صحيحا فإن المشكلة تصبح أعوص بكثير مما نظن. كنا نظن أن المطلوب هو انتصار دين على دين ، أو تحقيق تحرر أمة من تبعيتها لأمة أو أمم أخرى ، أو إحلال الاشتراكية محل الرأسمالية . فظهر لنا أن العدوّ المتربص بنا أعتى من كل هؤلاء وأثبت قدما وأشد ضراوة . بل والأفدح من كل هذا أن لهذا العدو أعوانا في داخل نفس كل منا. فإذا كان صحيحا ، كما أزعم أنه صحيح ، أن العولمة مبعثها في التحليل الأخير ، ميل قديم ومتأصل في نفس الإنسان نحو تخفيف ما يتحمله من أعباء الإنتاج والاستهلاك ، ومن ثم نحو تطوير التكنولوجيا ، وأن ما أفضى إليه ذلك في نهاية المطاف ، هو عملية قهر لم يعرف الإنسان مثيلا لها في تاريخه الطويل: قهر لتفرد الإنسان داخل أمته ، وقهر لأي هوية ثقافية قد تتمسك بها أمة من الأمم؛ إذا كان الأمر كذلك فإن المشكلة تظهر على أنها أكبر بكثير مما نظن. فهي ليست مشكلة دينية أو قومية أو مشكلة تنظيم اقتصادي أو اجتماعي ، بل هي مشكلة تتعلق بميول إنسانية متصارعة ومتضاربة ليس

هناك أى ضمان لأن ينتصر من بيننا أفضلها أو أنبلها أو أنسبها لبقاء الإنسان نفسه على ظهر الأرض.

إن الاقتصار فى النظر إلى المشكلة على جانبها الدينى أو القومى أو على جانب التنظيم الاقتصادى والاجتماعى ، لا ينطوى فقط على قصور فى تشخيص الداء بل قد يحمل فى طياته أيضا تضييع فرصة الشفاء الحقيقى منه. أما الخطأ فى التشخيص فقد حاولت فيما تقدم أن أبيّنه ، وأما تضييع فرصة الشفاء الحقيقى فأقصد به أن التشخيص الصحيح لموضوع المرض وسببه ، وهو ما أسميته المجتمع التكنولوجى الحديث، قد يسمح لنا بأن نتبين أننا فى معركتنا للحفاظ على هويتنا الثقافية لنا أنصار حقيقيون منتشرون فى مختلف أنحاء الأرض ، يتمثلون ليس فقط فى أصحاب الديانات الأخرى التى تتعرض مثل ديننا للقهر ، ولا يتمثل هؤلاء الأنصار فقط فى أصحاب القوميات الأخرى التى تتعرض هوياتها الثقافية لغزو ثقافات مغايرة تحمل أسلحة أقوى وأموالا أكثر ، بل إن لدينا نصيرا وحليفا حقيقيا فى كل من يرى مثلنا الخطر الداهم الذى ينطوى عليه المجتمع التكنولوجى الحديث والذى يهدد تفرده وإنسانيته وهويته. فإلى جانب حركات الدفاع عن الطيور والحيوانات المهددة بالانقراض ، داخل المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا ، هناك بلا شك داخل هذه المجتمعات نفسها ، من يقلقهم أيضا الخطر الذى يهدد آدمية الإنسان وثقافات الأمم الأخرى بالانقراض. وإذا كان ماركس وانجلز قد ختما بيانهما الشيوعى بدعوة جميع عمال العالم إلى الاتحاد ، فإن من الممكن لنا الآن ، بعد مرور قرن ونصف على البيان الشيوعى ، أن نعدّل بعض الشىء فى هذه الدعوة ، فنجعلها دعوة إلى الاتحاد موجهة إلى كل مهتم بآدمية الإنسان وتفرده ، ولكل حريص على المحافظة على الهوية الثقافية لمختلف الأمم.